تداعيات التشكيك في كمال الله وقدرته

لقد شـــهد العصر الحديث انتكاسات عديدة أحدثت جروحا عميقة في جسد الإنسانية المترامية الأطراف. وبالرغم من أن المجتمعـــات المعاصرة لازالت تعاني من جراح الماضي القريب إلا أنها تُطعن يوميا بخناجر حادة. حيث أصبح التجرد من الصفات الإنســـانية طابعا ســـائدا في العلاقات الفردية والجماعية من خلال إهانة كرامة الإنســـان، وهضم حقوقه المشروعة وحَدِّثْ ولا حرج عن المواقف المحرجة التي تعكس أبعاد الانحطاط الأخلاقي والحضاري لهذا العصر. ولطالما عقدت الإنســـانية الآمـــال على أن ترتقي وتتجاوز محـــن الماضي الأليـــم. ولطالما تمنت أن تنمحي تلك الحقبة من مخيلتها. فأنشأت منظمات وهيئات وعقدت المؤتمرات والجلسات، متطلعة إلى مستقبل باهر لا ينتقص من حقوق الإنسان شيئا. فيصبح الإنسان سيد نفسه.. عزيزًا كريما لا يكدر صفو حياته أحد بســـبب لونه أو عرقه أو فكره أو معتقده.

ويا حســـرتاه فإن هذه الآمال تصطدم مع الواقع الإنســـاني المرير الذي يعيـــش متناقضات في زمن قطعت فيه المعرفة العلمية أشـــواطًا كبيرة غيَّرت معالم العصـــر وجعلت بينه وبـــين الأمس البعيد بونا شاســـعا.. وبالرغم من هـــذا الرقي ما زالت البشـــرية ترى صـــور هذه المتناقضات وتســـمع أصواتها.. اضطهادًا وحرية، شـــقاء وسعادة، ثراء فاحشًا وفقرًا مدقعًا. وتسير الحشود الغفيرة في هذا الخضم بلا هدف نبيل، وتكتفي بمشـــاهدة ظلمة هذا العالم لتصبح جزءا من هذه العَتمة من خلال الحياة اليومية المضطربة. ولعل دوافع هذه المأســـاة ناجمة عـــن الحيرة والهيبة من المســـتقبل من جراء الفـــراغ الروحي. ذلك الفـــراغ الذي يجعل حياة كثير من الناس في عصرنا الحالي تتســـم بالضبابية وعدم اليقين، وهذا هو العامل الرئيس الذي يفرغ الحياة من الأمل والصبر، لأنه عادة ما يتســـبب في شـــلّ وتعطيل القدرات لما ينجم عنه من تحجر في القلوب فتصبح أشـــد قسوة من الحجارة، ومن ثم إلى التردي الأخلاقي والبغضاء والقسوة والمظالم. وهذا نتـــاج تعامل خاطئ يمكن معاينته في التاريخ الإنساني القديم، لكنه غدا أكثر جلاء وخطورة مما كان عليه في الماضي.

وبما أن التيارات المادية والإلحادية طغت على حياتنا

المعاصـــرة فمن البديهي أن يحـــدث اضطراب في السلوك البشـــري من خلال علاقة الإنسان بأخيه الإنســـان. وعلى الرغم من الإنجازات النبيلة التي وصل إليها عالم اليوم لتشخيص أعراض الانحطاط والتدهور على المســـتوى الاجتماعي، تبقى الرغبة الإنســـانية الجياشـــة للوصول إلى السلام قاصرة. وهكذا تكون قد فشلت فشـــلا ذريعا لاعتمادها على آليـــات مادية واجتهادات عقلية أقصت البعد الروحـــي والإيماني. لأنه لا يمكن للقلب والعقل أن ينعما بالهدوء والطمأنينة باجتهادات فكرية وأسباب مادية إلا إذا اســـتمدا فعاليتهما وقوتهما من واهب السلام الذي هو وحده سبحانه وتعالى الذي يهب الإحساس بالاطمئنان والنجاة والتآلف للبشر.

... ففقدت الإنســـانية آليات الوصال بالحضرة الأحدية، وبالتالي تشـــوهت صفات خالقها في ذهنها وروحها. فباتت تشك في كمال اللّه وقدرته، الأمر الذي فسح المجال للشـــرك الخفي والجهري أن يغزو معالم ومقومات شخصيتها.

إن تخبطَ الإنســـان المعاصر في المشـــاكل النفسية والاجتماعيـــة يدل على أنه يبحث عن توافق بين احتياجاته الماديـــة والروحية في ظل غياب قاعدة مشتركة بينهما. ولا شـــك أن ما قدمه الإسلام للبشـــرية من هداية حقيقية كاملـــة عبر تعاليمه الحكيمة هي الســـبيل الأوحد الذي يحقق الأماني الفطرية التي يبحث عنها الإنســـان في كل زمان ومـــكان، ولن يتخلص العالم اليوم من آفة التردي الأخلاقي والفراغ الروحي الذي يعاني من ويلاتهما إلا عن طريق الرجوع إلى الله تعالى.

ويا حسرتاه على الإنســـانية في عالمنا اليوم حيث غرقـــت في بحر تلبيـــة رغبات الغرائـــز البهيمية بالإضافة إلى تكبلها في أحبال الســـيئات المعاصرة من خلال هدر طاقاتها في ســـوء استعمال وسائل التواصل الاجتماعية الحديثـــة. فقد انحدرت إلى حضيض الجاهلية الأولى.. ففقدت آليات الوصال بالحضرة الأحديـــة، وبالتالي تشـــوهت صفات خالقها في ذهنها وروحها. فباتت تشك في كمال الله وقدرته، الأمر الذي فسح المجال للشرك الخفي والجهري أن يغزو معالم ومقومات شخصيتها.

ولا شك أن أهم أسباب هذه المأساة هو كما بيَّن سيدنا أحمد عليه السلام في كتابه دافع الوسواس: "لا تقعـــدوا في خيمة العقل وحده وقد ســـقط البُوانُ، واســـعوا إلى الله بإمحاض الطاعة وإخراج غيره عن الجَنان."

هدانا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه أجمعين.